(٨)

الدين والدنيا
ما قبل محمد وما بعد محمد
لا تفكروا في ذات الله وتفكروا في آلاء الله

حديث الجمعة

١٤ جمادى الأولى ١٣٨٠ هـ - ٥ نوفمبر ١٩٦٠ م

أستغفر الله وأتوب إليه، وأحمده وأستعينه وأستهديه. لا إله إلا هو، عليه يتوكل المتوكلون، وبه يستعين القادرون والموفقون والميسرون، وعنه يغفل التعساء، والأشقياء، والمحرومون.

عباد الله.. اتقوا الله وآمنوا برسوله، يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم منه نورا تمشون به في الناس، ما تحت الثرى وما فوق الثرى وما في السموات.. يجعل لكم ظلا ذا ثلاث شعب تمتدون به في عوالم السموات والأرض وما تحت الأرض فتحيون في أنفسكم، تكسبون الحياة، تتذوقون الحياة، تعرفون الحياة، تتعرفون بالحياة، تجتمعون على حياتكم وهو الله، عتقاء من القيود، متسعون لما لم تتسع له السموات والأرض من أمره.

قام الجنس على هذه الأرض من دهور بعيدة سحيقة في القدم، لا تعرف لها في وعينا، ولا في تاريخنا، لا ولا في تقديرنا بدء، يمكن أن نحدد به لذلك زمنا. إننا نعجز عن إدراك بدء الجنس على هذه الأرض المعمورة بهذا الجنس كما نرى.. فكيف نتطاول إلى ما قبل هذه الأزمان؟ وكيف نتطاول إلى العلم بما هو أوسع من هذه الأمكنة أو من هذا المكان إلا بقدر؟ كيف نشرئب لإدراك عن بدء للوجود وهو لا بدء له؟

إن الناس يتحدثون من قديم الجنس عن القوى الخالقة لهم. يتألفونها أو يحاولون تألفها، ويخشونها أو يخشون جهلهم بها، ويحبونها أو يحبون متعة أنفسهم منها.. وذلك على جانبي الحياة في عوالمها الكثيفة واللطيفة، في مجتمعاتها المنظورة لمفرداتها، المحجوبة عن غير مجتمعها. وبذلك تَكَون منهم ومن أفكارهم ومن محاولاتهم ما أسميناه أخيرا بالدين.. سواء ما كان منه بعادات مرعية أو طقوس شكلية في

العصور القديمة البدائية وما تخلف عنها، على ما كان له من مختلف صور، أو ما أخذ من نظام وحي وكتاب ورسول في العصور الوسطى حتى ظهور خاتم هذا النظام الرسالي الفردي وبادئ النظام الجماعي المتحد، والعلم الفطري المتكامل.

تواجد الناس على هذه الأرض قديما وما زالوا يتواجدون. وفارق الناس هذه الأرض قديما وما زالوا يفارقون، لا يدرون من أمر تواجدهم أو مفارقتهم شيئا، كما لم يدر من قبلهم من أمر تواجدهم ومفارقتهم شيئا. فارقوا هذه الأرض بعد تواجد أمة بعد أمة، وعصرا بعد عصر. لم يرجعوا إلينا بنبأ. ولم يتكشف لنا عنهم خبر، حتى كانت عصور الحكمة ثم عصر النبوة، عصور البشرية تتلقى من السماء حديثا، وتتلقى من السماء خبرا، وتقيم هذه الأخبار فيها أحداثا، وتكون بذاتها للناس حَدَثا. فعرفنا الحكماء والأنبياء، وعرفنا مطالعة الحكماء وكلام الأنبياء وحديث الغيب الإنساني إليهم، معرفين عن مواصلة الإنسان للحياة في حياة أخرى، ومعرفين عن بعث الإنسان من هذه الحياة الأخرى مواصلة للحياة أيضا.

تحدث إلينا الأنبياء بما وَعَوا في أنفسهم. وبما أدركوا من الحديث إليهم، أو المشاهدة تقوم بهم، حتى كان خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ختما لهذا العصر ولهذا النظام. وقد جاء متمما لهذا الأسلوب ولهذا النظام الذي يتحدث فيه متحدث إلى متحدَّثٍ إليه من بين الناس، يخصه بحَديثه ويلتئم الناس حول هذا المتحدَّث إليه، يطوفون حوله، ويقصدون بيته، وتتجول خواطرهم فيه وفي أمره وفي معناه، ويربطون بينهم وبينه، ويقارنون بين وعيهم ووعيه. يضعون أمام نواظرهم وعيهم وأمام نواظرهم وعيه. ينظرون ذاته بينهم وينظرون ذاتهم في مرآته - إن عرفوا صفاءه - وينظر هو ذاته في مرآتهم - إن أحبهم وتآخى معهم، واتخذ منهم عضدًا له على أمره، وعونا له في رسالته - وخاتما ينطبع عليه تلقائيا كل من سبقه من الأنبياء ليكونوه لأنفسهم.

هذا النظام هو محصلة ما انتهت إليه الإنسانية في تاريخها إلى ظهور محمد وأمته. فلما جاءهم ليتحدث إليهم بما تحدثت به إليه أصول الإنسان، ويعلم الناس مما علم، لم يُغفِل ما كان عليه أمر الناس من قبله، وأمر الأنبياء من قبله، وأمر الحكماء من قبلهم، وأمر الهداة من قبله، وأمر القادة والأئمة من قبله.

قدَّم للناس ما تلقى من أخ مؤدب له، ومن رفيق أعلى مُمتد فيه مُحيي لهما، ارتبط بهما لا انفصال بينهما وبينه هو ثالثهما في وحدة من الغيب باطنا لوحدة من الشهادة هو أولها، يعرف بها محمد عند الناس رسول الله، وتعرف به في الناس حق الله، فيُعرِّف محمد بما هو مودع فيه من حياة وقدرة وإمكانيات كتاب الله عن محمد عبد الله وحقه بظاهر إمكانياته، ومدرك إفاضته من فيض روحه ونورانيته، يتعاون شِقَّاه ظاهرا لباطن وباطنا لظاهر. عَرَف محمد باطنه ربا له حبيبا مخالا ورفيقا أعلى

لنفسه، فعرَّفه إلى الناس رفيقا أعلى له وربا لهم وله. وعَرَف رسوله إليه نفسه وعَرَّفَها أخا له (هذا أخي جبريل جاء يعلمكم دينكم)[1]، وعرَّف الرفيق الأعلى ربا له ولأخيه وربا للناس.

ولكن الناس ما زالت تتجول أفكارهم وعقولهم إلى ما لا طاقة لهم عليه، وما لم يتهيأوا له. يطلبون ما يسمونه (الله) بلا وعي فيه أو علم به. يطلبون ما قبل وجودهم. يطلبون ما قبل الوجود. يطلبون مستحيلا. يطلبون عدما. يطلبون وهما وخيالا. يطلبون ما لا وجود له، فما كان الوجود محدثا في وجوده، ولكن كانت الأكوان محدثة فيه، فانية فيه - ما أفناها -. متجددة فيه - ما جددها. - باقية به - ما أبقاها-.

إن الأكوان هي خلايا الوجود، على مثال من الإنسان وما فيه من خلاياه وأعضائه وجوارحه وأجهزته، كنواة لعالم أو كون، تجدد وتستهلك في تعادل ونظام. فإذا زاد تجددها على استهلاكها نما الوليد حتى صار رجلا. فإذا تناقص التجدد انحدر إلى طريق الذهاب من المادة شيخا فكهلا. فإذا ما تغلبت نسبة استهلاك أنسجته على نسبة تجددها فزادت نسبة التحول إلى الطاقة عن نسبة التكوين الكيماوي من المادة إلى الخلية، انحدر القوس وتقوس الظهر، وغيرت الرأس اتجاهها من الوجهة إلى سماء الأرض إلى الوجهة إلى أرض السماء، فاتجه إلى باطن الأرض فضمته الأرض وانتهت وظيفة الجسد.

إن الكون الكبير يُقرأ في الكون الصغير. وإن الكون الصغير إذا استقام على قوانين صحته وقوانين سلامته نما ونما حتى صار كونا كبيرا.

طلب الناس إلى محمد أن يتحدث إليهم عمن يسمونه الله متابعين في ذلك من سبقهم من الناس بحثا عن هذا ال الله. ولكن محمدا جاء الإنسانية بجديد. إن محمدا جاء للإنسانية ليعرف عن عبد الله. ليقوم بين الناس عبدا لله. ليظهر للناس بآلاء الله. ليعرف الناس عن آلاء الناس. ليقول للناس إن الله ليس موضع فكر كما أنه ليس موضع طلب. إن في طلبه حرمانه. إنه الموجود. إنه الحياة. إنه الحي القيوم. إنه أنتم. فكيف تطلبون موجودا؟ إن في طلب الموجود المنظور إغماض للعين عن نظره. إن في هذا تجاهل له، ومظاهرة له. فلا تعطوا الله ظهوركم. ولكن أعطوه وجوهكم. أينما تولوا فوجهه. وهو من ورائكم محيط فانقلبوا إليه في أنفسكم. إنه أقرب إليكم من حبل الوريد. إنه معكم أينما كنتم. إنه أنتم فلا تغيبوه معيتكم بالحياة فلا تختانوا أنفسكم.

قالوا: نحن خلقه.. فكيف نكون خلقه ونكونه وهو الخالق؟ قال لهم: (كان الله ولا شيء معه ثم خلق الخلق حقا وهو الآن على ما عليه كان)[2]. إن الخلق فيه لم يزيدوه وجودا. ولم يزيدوه ظهورا. ولم

يشاركوه وجودا. ولم يشاركوه ظهورا. إنه المتجلي بالخلق وهو ما تسمُونه أنتم خَلق. إنه المتجلي بما أوجد، لا ليُعرف لغيره فما ثمة غيره، ولكن ليعرف في تجلياته عند تجلياته بمعاني عينه وشهادته، لا تحيطون بشيء من علمه عن نفسه وهو العالم بنفسه إلا بما شاء.

فيا إخواني لا تجاهلوا الحياة في أنفسكم. ولا تغمضوا عيونكم عن جماله، عن وجهه الظاهر لكم، فاشهدوه واعتقدوه الوجود. فإنه لا يظهر لكم مدركا لوعيكم ما لم توحدوه، فتؤمنوا به فتتواجدوه، إذ يكشف الغطاء عنكم لكم فتشهدوه أنتم، وتشهدوا ما تشهدون عينكم، فتشهدون لا إله إلا الله، لا مشهود ولا مشاهد إلا الله، لا موجود بحق إلا الله. لا تفكروا في ذات الله فأنتم في ذات الله، وأنتم من ذات الله، فكيف تفكرون في موجود بمعنى الغائب فتزدادون بصلاتكم له بعدا عنه!

يا عباد الله! لا تفكروا في ذات الله ولكن تفكروا في آلاء الله وآيات الله. إنه الوجود كله - وكله على ما هو كله - لا على ما أحاطكم به منه أو أحطتم به منه إدراكا أو سلطانا أو تصورا. إن الوجود هو ذات الله. هو الله. هو الله في ظهوره، وإن الوجود الذي هو الله له صفاته، وله قدراته، وله إمكانياته، وله حكمته، وله تدبيره، وله فعله، وله شأنه في قوانين طبيعته.

إنكم إن آمنتم به مرتبطين، فتواجدتم به فاعلين، وسرتم فيه أحرارا محررين، طلقاء ممكنين، حَفت بكم آلاؤه. وظهرت عليكم نعماؤه. وأُفيضت فيكم رحمته. وأُشعلت في نار قيامكم جذوته. وأشرقت من احتراق موادكم أنواره. وقامت بكم مظاهره وأسراره.. لأنكم محل آلائه، ومحل جزائه، ومحل رضائه، ومحل وفائه، كما أنكم محل بلائه ومحل ابتلائه ومحل إفنائه.

يا أيها الناس! إن الأمر يختلف في علاقتكم بالله في عظمة وجوده، وعلاقتكم بالوجود المتخلق في علاقتكم بالمعبود، وعلاقتكم بالخالق، أو علاقتكم بالمحيي، وعلاقتكم بالحي القيوم.. سموه ما شئتم. إن فهمكم عن علاقتكم به من بعد محمد العبد الرسول يجب أن تختلف عن فهمكم عن علاقتكم به من قبل محمد الرسول العبد. إن أمره فيكم من بعده يختلف تمام الاختلاف عن أمره فيكم من قبله. وإن أمر الناس فيه من قبله يختلف تمام الاختلاف عن أمر الناس فيه من بعده.

لقد انقطعت النبوة من بعده، على ما كانت عليه من قبله. (خلفت الله عليكم)[٣]. خلّفَنِي الله عليكم. إن الله من بعده غير ممتنع عن الصلة بأيكم ما طلبه. لقد كشف لكم به أنه قائم فيكم، على مكث معكم، متكاثرا عبدًا له. لن يفارق الأرض بتكاثره، ولن يُفارق الأرض بانشغاله.. تعرض عليه أعمالكم كما تعرض على رسوله والمؤمنين، فإن وجد خيرا حمد الله حمد نفسه وحمده الرسول

والمؤمنون، وإن وجد شرا غفره وقد استغفره لكم الرسول والمؤمنون. إن الله يرى عملكم ورسوله والمؤمنون.

إن الأمر قد تغير من بعده. إنه عبده. إنه محل آلائه. إنه عبد قديم بقدمه من عباده القدامى بقدمه. إنه عبد باق ببقائه من عباده الباقين ببقائه. إنه عبد ملتصق به من عباده القائمين به لا يفترقون عنه أبدا.. كما أنه لم ينفصل عنهم أبدا.. إنه معاني ومغاني العبودية كلها.. إنه العبودية فيه، وإنه العبودية له، وإنه العبودية منه، وإنه العبودية هو.

إنه ظهور ربوبيته. إنه ظهور رفيقه الأعلى منه. إنه حقيقة وإنه ظهور حقيقته. إنه حق دانى به الحق وغيبه.. دانى منه الحق ووجهه. دانى به الحق ويده. دانانا به الحق وعضده. دانانا منه الحق وعبده. لا تدعونه إلا بعبده، فهو أشرف أسمائه، وأكبر آلائه، وأرقى نفحاته. فإن شئتم فتابعوه إليه عبيدًا له.

صدقوني أن العبودية له مشهودا بعبده ورسوله جمال وحياة.

صدقوني أن العبودية له موجودا بعبده ورسوله عز ونجاة.

صدقوني أن العبودية له معروفا بعبده ورسوله فيها الحرية في الكون وفوقه.. سبحا في الوجود من وجوده، واغترافا من نعمائه وجوده، والكل برحمة ربه معه في الحياة، فلا تعددوا العبد مع مولاه، ولا تعددوا المولى مع من والاه، ووحدوا ونزهوا في أنفسكم وفي الوجود الله.

صدقوني أن المطلوب إنما هو العبودية. أما الحقيقة، أما الله، أما الوجود، أما الخالق، فإنه الموجود في وجودكم. إنه ائتمنكم فيكم على قدرات أسمائه. فأنتم ذكره المحدث - ما تذكرتم وما تنبهتم، وما الغطاء عن أنفسكم أزحتم -. فلستم الدثار ولكنكم المدثر.

(لا تفكروا في ذات الله ولكن تفكروا في آلاء الله)[٤]

ماذا يريد فقهاؤنا أن نعرف عن حديث رسول الله لا تفكروا في ذات الله؟ ماذا يريد عقلهم ووعيهم أن نتابعهم فيه؟ أيريدون أن ذات الله لا يصح التجوال في التفكر فيها؟ ما إلى هذا قصد رسول هذه الذات. إنه إذا كان رسولها يقول للناس لا تفكروا فيمن أرسلني، فما هو برسول وقد هدم رسالته. كيف لا يفكر الناس فيمن أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، وهو يطلب منهم أن يؤمنوا به، ويكونوا عبادا له، ويقول إنه رآه وسمعه، كما يقول إن ما أعطيه فهو لأمته؟

ما قال لهم محمد إن الله غيب الوجود دون الوجود! ولكن قال لهم إن الله في ظاهره الوجود، وفي باطنه غيب الوجود في وقت واحد، لا تعرفوه غيبا لا ظاهر له، ولا تعرفوه ظهورا لا غيب له. وكيف

يكون لكم ذلك بتطور إليه في أنفسكم وأنتم على ما أنتم في جمودكم؟ إن لكم ظاهرا كما أن لكم غيبا من ظاهره وغيبه. إن ظاهركم هذا الذي تظهرون به هو له وبداخلكم غيب هو له، لا يعرف إلا لمن دخل في هذا الغيب بدخوله في نفسه. ما عَرَف الطب ظاهر الذات البشرية إلا عن طريق الدخول في هذه الذات بعلوم التشريح، وعلوم وظائف الأعضاء، فدخلوا في مجاهل هذه الذات، وعرفوها ورسموها وصوروها وأدركوها وقدروها وعَلِموها وعلَّموها. فإذا هي الكل فيها سواء، لا تختلف ذات عن ذات في داخلها، وإن تعددت الألوان والأشباه، وإن تعددت الأجناس، وإن اختلفت العقول، وإن اختلفت النفوس، وإن اختلفت الصفات. وما زالت مجاهل هذه الذات تتكشف للعلم حتى هذا العصر، وما زالت بعض مجاهلها لم تعرف.

إن الإنسان في مجاهله الداخلية من الذات إنما يحلل غيب هذه الذات عليه من حيث المادة والظاهر، ولكن هناك لهذه الذات غيب آخر من ذات لطيفة ليست في متناول التشريح، لها دائرتها الصفاتية عن إمكانيات هذه الذات، وتأثيرها في وجودها الخارجي المرتبط بهذا الوجود الداخلي، والذي يمتد سلطانه ويرتبط محيطه بمركزه الذاتي حتى نقطة القلب من سويدائه من صميمه وصمامه، فهناك لهذه الذات اللطيفة دائرة غيب آخر بها وعنها. وهذا ميدان آخر للعلم حلله التصوف الإسلامي والتصوف الديني في كل ملة، كل على تصوير في حدود إمكانياته وما تكشف له لا يختلف في جوهره شأن كل علم، وإن اختلفت ألفاظ التعبير عنه.

فالكائن البشري في نظر علوم الفطرة عبد لله بظاهره وباطنه. وهو ذات لظهور الله بعبده بظاهره وباطنه، في ذات الله الأكبر المحيطة به بظاهرها وباطنها عَلما على الأقدس فالأقدس. هذا الكلام خلاصته ما تضمنه كتاب الحق المحيط مفصحا أو مشيرا، وما تضمنه إجمالا حديث رسول الدوام موضحا أو مشيرا كذلك.

ولكنا في هذا العصر وفي هذا الزمان يقوم بيننا حدث ويقوم فينا أمر، به يتكشف لنا جديد عن هذا العنوان من معنانا من معنى الإنسان، ذلك أن يتحدث إلينا الغيب الإنساني، أن تتحدث إلينا السماء مرة أخرى حديثا موجها وشاملا لعموم الناس، نداءً ظاهرا لجميع الناس، منسوبا مصدره لأصول الناس، ظاهرا للناس بأجهزة من الناس. وإنها إذ تتحدث مرة أخرى بحديثها القديم لا تتسمَّى لنا بما تسمت به في قديم، أو بما سميناه نحن به في قديم، أو سماها به آباؤنا في حدود وعيهم من قولهم جاء الملاك، أو جاء الروح الأمين، أو جاء الرب، أو جاء الناموس، أو جاء الإله. هذه تعبيرات في الديانات القديمة لم يصبح لها محل بعد الذي جاءت به عوالم الغيب في هذا العصر.

لقد جاءنا محمد بتعاليم واضحة، وبأوامر صريحة - إذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعانِ - من جاءني مشيا جئته هرولة، ومن تقدم إليّ ذراعا تقدمت إليه باعا - وعلى ذلك من أحب الله خردلة أَحبه الله قنطارا. ومن رضي عن الله مثقالا رضي الله عنه ملء السموات والأرض. فما ظهر الله في شيء مثل ظهوره في الإنسان، ومن تقرب إلى الله تقرب الله إليه، ومن آمن بنوره فيه ظهر الله به بنوره في الناس، فمن أحب الله أحبه الله وإذا أحبه كانه له.

فلا نتكلموا بعد الآن عن الآلهة والأرباب والملائكة كما تكلم الآباء. ولكن تكلموا عن الإنسان. تكلموا عن عظمة الإنسان بربه. تكلموا عن الآلاء والإحسان من ربه. تكلموا عن العبودية لربه. تكلموا عن العبودية للرحمن. تكلموا عن الإنسان اسم الله. تكلموا عن الإنسان عنوان الله. تكلموا عن الذكر المُحدَث من الله فيكم وبكم. أفكلما جاءكم ذكر محدث من الله أسوة وقدوة التويتم على أنفسكم، وظاهرتم وما واجهتم، فريقا كذبتم وفريقا تقتلون! ألم يقل الرسول خلفت الله عليكم، مع عباد الرحمن يمشون بينكم على الأرض هونا لا ينقطع بينكم تواجدهم؟! علمهم من لدنه علما وآتاهم من لدنه رحمة. جعلهم سلاما لا يعرفون الخصام، ولا يجابهون بمخاصمة اللئام. إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. إنهم في أمر أنفسهم ومن يلوذ بهم. إنهم في أمر عبوديتهم وأمر القائم على كل نفس بما كسبت. إنهم في أمر ربهم وإخوتهم من عباده. إنهم يبيتون لربهم ركعا وقياما. إنهم يصلون ربهم سُجَّدا عابدين، كما يصلونه عمالا منطلقين، له ذاكرين وفيه أحرار، وبه متحررين ومحررين، على الأرض يسيرون، وعلى الماء يمشون، وفي الهواء يتجولون. لهم عند ربهم ما يشاؤون.

هؤلاء عباد الله. هم ذكر الله المحدث يبرزهم أسوة للناس، وقدوة للناس، وإمامة للناس، وآحادا لحيوات الناس، شموس إشراق، وسرج طريق، وأقمار جمال، ومصابيح نور، وبساتين أراضين، وسفن رحمة. إنهم يد الله المقلة، ويد الله المظلة، ويد الله المنبسطة، ويد الله المنتشرة، (خلفت الله عليكم)[٥]، لا تفكروا في ذات الله ولكن تفكروا في آلاء الله.

حال الرسول فينا يقول اسألوني فأنا بينكم وفيكم، واطلبوني فأنا المتواجد فيكم يوم تستيقظون، وأنا القائم في نيامكم ونائمكم، وأنا اليقظ في يقظتكم ومستيقظكم، وأنا الحي في حياتكم ومستحييكم. اطلبوني فأنا بالرحمن خبير، وبالمعرفة جدير أبين لكم، أعلمكم، سأختفي بينكم فاطلبوني. ابحثوا عني فإن بحثتم عني ستجدوني - هو الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين - إن وليي الله وهو يتولى الصالحين - أخفى الله الأولياء في الخلق عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا، لا يستعلون ولا يستكبرون، ولا يبغون علوا في الأرض ولا فسادا.

هذا هو الأمر بعد محمد. فما حاجة الإنسانية من بعده للأنبياء؟ وقد جعل الله في أمته وفي معناه من تكاثره العديد من الأولياء، يتولاهم الله ويعينهم الله، يعرفون الله ويؤمنون به، ويتواجدونه، ويعرفون الله للناس على ما عرفوا فيعرفونه في أنفسهم فيتواجدوه، وعما سواه يتخلون، وفي معناه وحصنه يدخلون، فلا إله إلا الله يقومون، ولا إله إلا الله يدركون، ولا إله إلا الله يستقيمون، ولا إله إلا الله حصنا يدخلون، فالله يشهدون في أنفسهم، والله يُشهدون ممن يشهدون الله في أنفسهم، ولا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها.. حتى تطلبوا إلى أهلها أن يطلبوا الله.. حتى تجعلوا الله هو منشود الناس، وهو حقيقة الناس، وهو مطلوب الناس.

هذا ما جاء به محمد. فكيف يبقى الأمر من بعده على ما كان من قبله؟ إن محمدا سر الناس، وإنه كافة الناس. إنه كافة الأمم وفطرة الأمم. إنه عبد الله. وهكذا يكون من كان عبدا لله.

يطلب الناس الله، ولا يطلبون من أنفسهم أمرا أو طلبا، فكيف يحقق الله لهم ما يطلبون؟ وهم من أنفسهم شيئا لا يطلبون؟ إنه مطلوب منهم أن لا يفكروا في أنفسهم بعيدة عن الله، أو مستقلة عنه، أو مشيئة مصارعة لمشيئته. هذا مطلوب منهم وأن يعتقدوه ويستقيموه. فإذا فعلوا كانوه كانت إرادة الله في إرادتهم ومشيئة الله في مشيئتهم.

هذا ما جاء به محمد فكيف يكون حديث الله من بعد محمد على ما كان عليه من قبل محمد؟ وكيف تكون استقامة الناس من بعد محمد هي عين ما كان يطلب من الناس من قبل محمد؟

إن محمدا فيصل الزمان، وفيصل المكان، وفيصل الناس، وفيصل الحياة. بنفسه فيصل وبأمته فيصل وبكل ظهور له في الناس فيصل. إنه الشهيد على الشهداء على الناس. فالمشهود منه إنما هم الشهداء على الناس، إنهم هم أرباب حاضر الناس. أما هو فرب الشهداء. أما فيمن يعلوه، أما في الرفاق، أما في الرفيق الأعلى، فإنه عبد الله. إنه عبد الله في عظمته، وإنه رب الأرباب في عبوديته بعظمة عبوديته لله. إنه رب نفسه. أما الشهداء فهم أرباب الناس به ما ملكهم الناس أنفسهم، وما ملكوا الناس في أنفسهم إلا رحمة من الله بهم.

هذا ما جاءنا به محمد، وعرفه في سنته وقوله وحكمته وسياسته، ويعرفه في وجوده دائما ما ظهر بتواجد.

فنسأل الله أن يجعله فينا ويجعلنا فيه، وأن يجعلنا منه ويجعله منا، وأن يحققنا بالحق على ما حققه، وأن يعبدنا فيه على ما عبده، لا إله غيره ولا معبود سواه.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، اللهم خذ بيدنا إلى الخير، اللهم لا تكلنا لأنفسنا ولا لغيرك، وعافنا من عدلك وجزائك، وولِ أمورنا خيارنا ولا تولِ أمورنا شرارنا، وبرحمتك فعاملنا، ومن عدلك فأقلنا، واختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين.

أضواء على الطريق

الدعوة إلى المعرفة من المتصل بمثاله من سبق رفيقا أعلى، (أنا أقربكم إلى الله وأخوفكم منه)[٦]، وبمثاله من لحاق {ويؤمن للمؤمنين}[٧] هي الدعوة إلى الصراط المستقيم {إن ربي على صراط مستقيم}[٨]، {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}[٩]. أما الدعوات الانفرادية المنقطعة عن الاتصال السرمدي فهي دعوات لا تمثل الحقيقة ولا توصل بها، مهما كان بها من حقائق عن الكون أو الوجود، فهي مجرد ظواهر كونية للحقيقة في الكون.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ من حديث شريف "هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم.". أخرجه ابن خزيمة، وابن حبان، باختلاف يسير، والبيهقي في (السنن الصغير). يستخدم السيد رافع والمتصوفة عبارة (أخي جبريل) إشارة إلى جبريل عليه السلام.

٢ إشارة إلى الحديث الشريف: "كان اللهُ ولا شيءَ معه، وهو الآن على ما عليهِ كانَ". المحدث: ابن تيمية، المصدر: مجموع الفتاوى. كما أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق بلفظ: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض."

٣ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٤ حديث شريف: "تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله." أخرجه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) والطبراني في ((المعجم الأوسط))، وابن عدي في ((الكامل في الضعفاء))

٥ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٦ إشارة إلى أكثر من حديث شريف منها: "إنَّ أَتْقَاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ باللَّهِ أنَا." صحيح البخاري. أيضا "... ما بَالُ أقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أصْنَعُهُ؟! فَوَاللَّهِ إنِّي لَأَعْلَمُهُمْ باللَّهِ، وأَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً." أخرجه البخاري ومسلم.

٧ سورة التوبة - ٦١

٨ سورة هود - ٥٦

٩ سورة الأنعام - ١٥٣